جاسوسية العصور الوسطى

اتسمت جيوش العصور الوسطى بقلة العدد ، وبدائية السلاح . فكان لابد لمن يريد النصر المؤزر أن ينشط سلاحه الثالث .. سلاح المخابرات ، حتى يقصر أمد الحرب ، ويقلل الخسائر ، وتنجح خططه فى مفاجأة العدو ، وتضيق الخناق عليه ، وقطع خطوط إمداده وتموينه ، وشل حركته ، وإجباره على الاستسلام . ويتوقف ذلك إلى حد كبير على مقدار ما يتوافر له من معلومات عن ظروف العدو ، من حيث العدد ، والعدة ، والخطة ، والمواقيت ، والروح المعنوية للجند ، ومواطن القوة والضعف فى الجيش . وكشرط أساسى للنصر ، لابد أن يكون الاعتماد الأول ـ بعد مشيئة الله ـ على توفير أحسن حالات الاستعداد للجيش المحارب ، وإلا فلا قيمة لأثمن المعلومات ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

★ هزيمة الملك هارولد

لم تعرف إنجلترا قبل الملك هارولد فى القرن الحادى عشر حاكماً اهتم بالمخابرات مثل اهتمامه . توافرت لديه كل المعلومات عن خطة «**وليم الفاتح**» فى الهجوم على إنجلترا : التوقيت ، ومكان نزول الجيش ، وعدد الجنود الذين جمعهم وليم الفاتح ، وخط سير المعركة . ومع ذلك خسر هارولد الحرب ، لا بسبب نقص المعلومات ودقتها ، ولا لخطأ ارتكبته مخابراته ، بل لأن جنوده سئموا القتال ، ودب فيهم المرض والكلال ، بعد السير مسافات طويلة .

★ خوارق النينجا

فيما عدا الملك هارولد ، لم يكن بين حكام أوروبا من اهتم بالمخابرات فى العصور الوسطى . على عكس حكام الشرق ، إذ لابد وأن تكون تعاليم «صن تزو» الصينية قد انتشرت فى شرق الصين وغربه ، وعرفها اليابانيون والمغول .

فى اليابان ظهر فن «**النينجا**» ، وهو اسم مأخوذ من كلمة يابانية معناها «**اللامرئى**» أو فن «**الاستخفاء**» . كان يمارسه فى اليابان ، فى القرن الثانى عشر، فئة من صفوة شباب الساموراى بدنياً واجتماعياً ، قيل إنهم تدربوا حتى اكتسبوا القدرة على المشى فوق الماء ، والحصول على المعلومات أثناء التخفى ، والاختفاء والظهور حسب إرادتهم .

على الرغم مما فى هذا الزعم من مبالغة وتحريف ، إلا أنهم خضعوا لتدريب شاق ، على أعمال فذة منذ الصغر ، كالمشى على الحبال المشدودة ، والتعلق فى فروع الأشجار بدون حركة لمدة طويلة ، والسباحة تحت الماء مسافات طويلة . وصاروا سادة التخفى ، والتمويه ، والاستطلاع ، ومن هنا اكتسبوا اسمهم الخرافى: «النينجا» وبهذه القدرات برعوا فى الخدمات التى أدوها ، سواء كانوا جواسيس أو مقاتلين ، كما أنها أكسبتهم منزلة عالية جدا فى المجتمع اليابانى .

★ جانكيز خان

ويتجلى استخدام المغول للجاسوسية بأوضح معانيه فى عهد جانكيز خان . فما كان لذاك «**الإمبراطور المقاتل المغوار**» ـ وهذا هو اسمه بلغته ـ أن يبسط سلطانه على الأرض ما بين منغوليا وأبواب العالم العربى ، بدون خطط محكمة .. وكانت الخطط المحكمة تحتاج بالضرورة إلى معلومات دقيقة ، يستقيها جواسيس أكفاء ، ويجمعها عملاء أذكياء من جنسيات مختلفة ، كمقدمة وأساس لغزواته . كما كان يكلف التجار المتجولين ، ينتشرون فى البلاد التى يوشك أن يغزوها ، يسجلون المعلومات اللازمة ، ويدونون مشاهداتهم وما يسمعون ، ويرسلونها إليه . وكثيرا ما لجأ جانكيز خان إلى إيفاد بعض أمهر قواده فى مهام جاسوسية صعبة ، ومن هؤلاء: قائد اسمه «**سبتاى**» ، وآخر اسمه «**نويون**» .

سبتاى يخدع التتار : كان «سبتاى» من أبرز قادة جيش «جانكيز خان» . فلما عزم الأخير على شن الحرب على التتار ، افتعل خلافا مع «سبتاى» ، وكلفه باللجوء إلى قائد التتار ، وزعم أنه تخلى عن جانكيز خان وانشق عليه .

وأنه يرغب فى الانضمام إليه . وإثباتا لحسن نيته قدم له معلومات مزيفة خلاصتها أن جيش المغول بعيد عنهم . وصار يزود جانكيز خان بالمعلومات سرا . وفوجئ التتار بجيش المغول يحدق بهم ، فأدركوا أن «سبتاى» لم يكن سوى جاسوس خدعهم . لكن بعد فوات الأوان .

نويون فى الصين : أما «نويون» ، فقد أرسله «جانكيز خان» على رأس قوة مغولية من الفرسان ، لمساعدة إمبراطور الصين فى القضاء على تمرد حاكم الإقليم الجنوبى . وكان جانكيز خان يضمر شرا للإمبراطور الصينى ، فأوصى «نويون» بالحصول على كل المعلومات اللازمة لشن هجوم على الصين ، ونفذ «نويون» الوصية ، واستفاد «جنكيز خان» من المعلومات فى وضع خطته .

نشأة المخابرات الدبلوماسية

كانت أوروبا فى العصور الوسطى تجهل الكثير عن شعوب الشرق. لا يعرفون الكثير عن المغول والتتار الزاحفين وسط آسيا ، ولا الإمبراطورية البيزنطية ، ولا السلاف الشرقيين . معلوماتهم عن المسلمين فى الشرق كانت سطحية ، لذلك وقع حكامها فى أخطاء سياسية وتعرضوا لأخطار كثيرة ، نتيجة لسوء التقديرات وفساد القرارات المبنية على غياب المعلومات الدقيقة . وقد تحقق ذلك بخسائرهم الفادحة خلال الحروب الصليبية نتيجة لاستهانتهم بقوة مسلمى الشرق الأوسط ، وعجزهم عن إدراك التهديد التركى .

وعلى مر الأحداث ، تنامى الاهتمام بالمعلومات ، وجرت سلسلة من المحاولات ، انتهت بنشأة المخابرات الدبلوماسية ، على النسق التالى :

* حاول الإمبراطور فردريك الثانى (١٢١٢ـ١٢٥٠م) إقامة اتصالات دبلوماسية ثابتة مع الحكام المسلمين .
* أرسل الملك «لويس التاسع الفرنسى» (١٢٢٦ـ١٢٧٠م) بعثات إلى بلاد المغول، لم تستفد كثيرا ، بينما حصل التجار الإيطاليون على معلومات كثيرة ، نادرا ما أقبل عليها حكام أوروبا آنذاك .
* فى القرن الخامس عشر ، اتسع نطاق التجارة بين الشرق والغرب ، وانشأت المدن الإيطالية سفارات دائمة لها خارج البلاد ، واشتهرت سفارات البندقية بنشاطها فى الحصول على المعلومات الهامة الدقيقة .
* فى القرن السادس عشر ، تأكد ارتباط أعمال المخابرات بالدبلوماسية ، إذ أنشأت أغلب حكومات أوروبا سفارات لها فى الخارج ، تزودها بمعلومات يحصل عليها سفراؤها . وكان المجتمع ينظر إلى السفراء على أنهم جواسيس، وما زالت الحكومات تعاملهم بحذر شديد . خصوصا وأن السفارات الدائمة التى أنشأها حكام أوروبا فى تلك العصور أرست قواعد إنشاء شبكة منتظمة من الجاسوسية .

* فى عهد الملكة إليزابيث الأولى ملكة بريطانيا ، عينت لورد «بورجلى» وزيراً للخارجية ، وكلفته بتعقب مؤامرات الكاثوليك فى بريطانيا ، فشكل أول نواة للمخابرات الإنجليزية ، وأسند إدارتها إلى «**فرانسيس ويلسنجهام**» ، الذى اقترن اسمه دائما بتكوين أول جهاز مخابرات منظم فى تاريخ إنجلترا . وكان يعرف آنذاك بجهاز الخدمة السرية .

★ فرانسيس ويلسنجهام

كان «**ويلسنجهام**» بروتستانتيا متزمتا ، درس القانون فى شبابه ، وهرب إلى القارة خوفا من الملكة الكاثوليكية «**مارى تيودور**» ، التى اعتلت العرش عام ١٥٥٣م وبدأت تنكل بالبروتستانت . ولما خلفتها الملكة «**إليزابيث**» بعد خمس سنوات، شعر بالأمان ، وعاد إلى إنجلترا .

اكتسب من إقامته فى الخارج خبرة لفتت إليه أنظار «**لورد بورجلى**» وزير الخارجية ، فكلفه برصد أعمال الجاسوسية فى أوروبا . وأمكنه من إنشاء شبكة تجسس خاصة داخل البلاط الملكى الفرنسى ، حصلت على سلسلة من التقارير الهامة ، عن المؤامرات التى كان يحيكها ملك فرنسا مع الجزويت ، ضد الملكة .

فرانسيس ويلسنجهام

فى عام ١٥٦٩ استدعى «**ويلسنجهام**» إلى إنجلترا ، وعين رئيسا لجهاز الخدمة السرية ، ثم أعيد بعد عام إلى فرنسا بعد أن رقى إلى منصب السفير الإنجليزى ، علاوة على رئاسة كل العملاء والجواسيس فى فرنسا . ولما تولى «**بورجلى**» وزارة الخزانة عام ١٥٧٣ استدعى «ويلسنجهام» مرة أخرى ليتولى وزارة الخارجية خلفا له . بالإضافة إلى إدارة شبكة المخابرات داخل بريطانيا وخارجها .

تفانى «ويلسنجهام» إلى أقصى الحدود . لكن الملكة «إليزابيث الأولى» كانت بخيلة . ولكى يحصل على نتائج طيبة ، اضطر إلى الإنفاق من جيبه الخاص ، إلى أن أفلس ومات غارقا فى الديون . ورغم شدة بخلها على ميزانية المخابرات إلا أنه ظل دائماً حريصاً على حمايتها بمظلة الأمان ، فلم تنجح واحدة من مؤامرات

اغتيالها العديدة فى الاقتراب منها .

وضع «**ويلسنجهام**» كل الإنجليز المبعوثين إلى الخارج فى دائرة الشك إلى أن يثبتوا ولاءهم الكامل بطريقة حاسمة . فلما عين «**سير إدوارد ستافورد**» سفيراً لإنجلترا فى باريس عام ١٥٨٣م ، ترامى إلى علم «ويلسنجهام» أنه تقاضى مالاً من الأسبان مقابل العمل جاسوسا لحسابهم ، كان يعرف أن المشكلة قائمة ، لكنه لا يملك الدليل ، فكلف عميلا موثوقا به اسمه «روجرز» بمراقبة «ستافورد» فى باريس . أكدت تقارير «**روجرز**» ضلوع «**ستافورد**» فى الخيانة ، ومع ذلك ظل حراً طليقاً ، لأن «**ويلسنجهام**» رأى أن زيادة ثقة الأسبان فى «ستافورد» تجعلهم يصدقون كل ما يقول . وبالتالى يمكن ـ عن طريقه ـ دس معلومات مزيفة ظاهرهاً الصدق ، لتضليل الأسبان ، دون أن يفطن إلى ذلك «ستافورد» . وهكذا لم يقدم للمحاكمة ، ولم يوجه إليه اتهام .

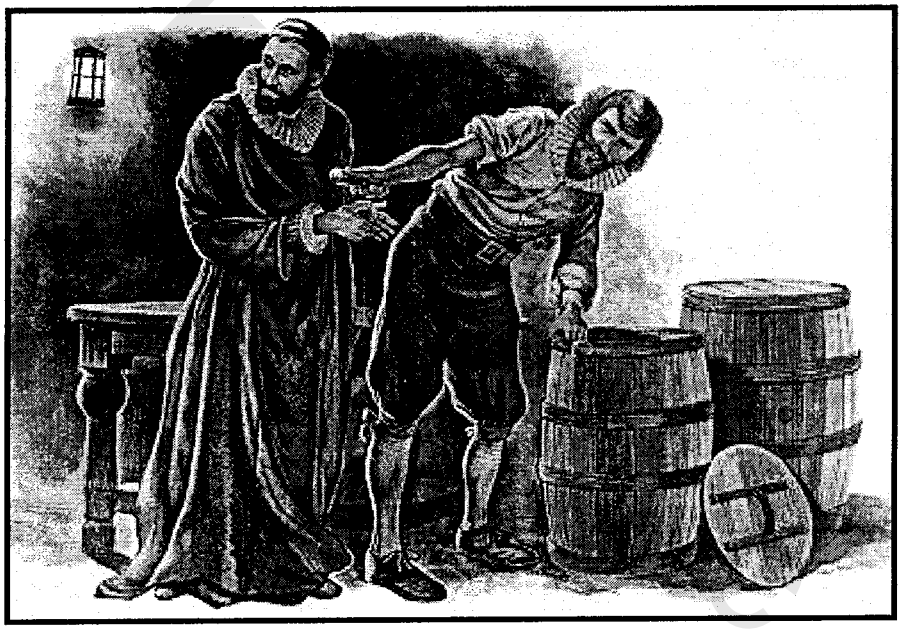

تهريب الرسائل للملكة السجينة فى براميل المؤن

فى عام ١٥٨٦م كانت «**مارى تيودور**» ملكة إسكتلندا قيد الاعتقال فى إنجلترا، لأن الملكة «إليزابيث» الأولى اعتبرتها خطرا على العرش الإنجليزى . كانت «مارى» على اتصال بمتآمرين كاثوليك معينين أرادوا عزل الملكة البروتستانتيه عن العرش . ظلت «مارى» على اتصال بأعوانها عن طريق رسائل تكتب بالشفرة وتدس

فى براميل المؤن التى تصل إلى الملكة فى سجنها . وكانت الملكة ترسل رسائلها بنفس الطريقة فى البراميل الفارغة . دبر هذه الحيلة رجل اسمه «**جيلبرت جيفورد**» ، ولم تعلم «مارى» أن «جيفورد» كان يعمل لحساب «ويلسنجهام» رئيس جهاز الخدمة السرية الإنجليزى ، الذى كانت تصله كل رسائل «مارى» أولا بأول لمدة ثلاثة أشهر ، وظل على صمته متحفزا ، ينتظر دليلاً حقيقياً ضد «مارى» . وهذا ما حدث فى يوليو عام ١٥٨٦ حيث كتب أعوانها عن تدبيرهم خطة لقيام ثورة كاثوليكية ، واستعداد ستة رجال لقتل «إليزابيث» وتتويج «مارى» ملكة على عرش بريطانيا .

أراد «ويلسنجهام» أن يعرف أسماء الرجال الستة . وبدلاً من توجيه الاتهام إلى الملكة السجينة فى الحال ، كلف خبير الشفرة بتزوير فقرة أضافها إلى رد الملكة «مارى» تقول فيها : «سوف يسعدنى أن أعرف أسماء وشخصيات الشبان الست الذين سينجزون المهمة ، فربما أستطيع أن أدلى برأى نافع على ضوء هذه المعرفة» غير أن «ويلسنجهام» لم يعد محتاجاً للأسماء ، فسرعان ما أصاب المتآمرين الذعر وسلموا أنفسهم ، وحكم على «مارى» بالإعدام .

رغم ضآلة الميزانية التى أتاحتها الملكة إليزابيث البخيلة لجهاز المخابرات ، إلا أن «ويلسنجهام» نجح فى استخدام جواسيس فى الخارج كما فى الداخل . وكان من الضرورة أن يوسع شبكة مخابراته فى أسبانيا ، بعد أن أخبره عملاؤه فى أوروبا أن الملك الأسبانى «**فيليب الثانى**» قرر غزو بريطانيا ليستولى عليها بالحرب ، بعد أن يئس من الاستيلاء عليها بالسلم ، إذ رفضت الملكة «إليزابيث الأولى» الزواج منه .

تأكدت هذه الأخبار بتقارير دقيقة عن خطط الغزو الأسبانى أرسلها «**سير أدوارد ستافورد**» السفير الإنجليزى فى باريس ـ وكان لويلسنجهام عميل نشط فى «**فلورانسا**» اسمه «**أنتونى ستاندن**» ، ينتحل اسم «**بومبيو بليجرينى**» استطاع أن يحصل على نسخة طبق الأصل من التقرير الذى قدمه الماركيز «سانتا كروزا» قائد أسطول «الأرمادا» إلى الملك فيليب ، ويحتوى على : عدد السفن وأسلحتها ، والجنود وأسلحتهم ، والبحارة ، ومستودعات الأسلحة والذخائر والمؤن ، ومواقع وحدات الأسطول ، وموعد إبحارها لغزو بريطانيا ، وأماكن رسوها للهجوم . وذكر

«**ستاندن**» فى تقرير آخر أن الملك فيليب أرسل مندوبين إلى «**جنوا**» للحصول على قرض يستعين به فى الإنفاق على الحملة ، فبادرت ملكة بريطانيا تقطع على «فيليب» خط الرجعة ، فحذرت سلطات «جنوا» بأنها تعتبر إقراض ملك أسبانيا عملاً غير ودى موجها ضدها .

وسع «ويلسنجهام» شبكة مخابراته الخارجية خلال عام ١٥٨٧ وصار له عملاء فى : **نانتس** ، **وروين** ، **ولاهافر** ، **وديبب** . كما أحكم مخابراته فى «كراكاو» ، ليرصد اتجاهات الفاتيكان نحو أسبانيا . ونشر جواسيسه فى : **بروكسل** ، **وليدن** ، **والدانمارك** ، وداخل البلاط الأسبانى . وكلف بعض رجاله بالتجول فى موانى سواحل أسبانيا وفرنسا ، واستأجر الصيادين وبناة السفن لمعرفة تحركات وتطورات الأسطول الأسبانى .

وكان «ويلسنجهام» يضم بعض الطلبة والكتاب إلى جهاز المخابرات بعد إخضاعهم لاختبارات معينة ، ويرسلهم إلى الدول الأوروبية ، ليتجسسوا على المتآمرين الكاثوليك . ومن هؤلاء ، الروائى الإنجليزى «**كريستوفر مارلو**» ، الذى لقى مصرعه فى مشاجرة بمطعم فى ظروف غامضة ، وأخلى سبيل قاتله «**فريزر**» لسبب مجهول . من هؤلاء الجواسيس أيضاً «روبرت بولى» .

فى عام ١٥٨٨م شوهد الأسطول الأسبانى فى المواقع التى توقعها «ويلسنجهام» قرب شواطئ بريطانيا وبنفس العدد والوصف الذى نصت عليه تقارير «ستاندن» ، وشاهد «ويلسنجهام» انتصار بلاده على أسطول فيليب ، وتوفى بعد عامين ، فى عام ١٥٩٠م يدين الملكة إليزابيث شخصيا بمبلغ ٣٤٦ جنيهاً وشلنين وستة بنسات . كتب جاسوس أسبانى فى إنجلترا إلى الملك فيليب الثانى يقول : «مات ويلسنجهام مخلفاً حزناً عظيماً هنا» وعلق الملك على هامش الرسالة قائلا: «نعم هناك حزن ، لكنها أخبار طيبة هنا» .

★ كريستوفر مارلو

كان «**كريستوفر مارلو**» شاعراً وكاتباً مسرحياً معروفاً ، كما كان جاسوسا بارعا. أثناء دراسته فى جامعة «**كامبردج**» لفتت مواهبه انتباه «جون دى» منجم الملكة «إليزابيث الأولى» ، فأوعز إلى «**سير فرانسيس ويلسنجهام**» بضمه إلى جهاز الخدمة السرية .

فى عام ١٥٨٧م بدأ «**دوق دى جويز**» رئيس الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا محاولة طويلة المدى لإنقاذ ابنة أخيه «مارى» ملكة إسكتلندا من براثن الملكة «إليزابيث» . لجأ إلى تقديم الضيافة إلى الطلبة الإنجليز ذوى الميول الكاثوليكية ، فى قلعة الجزويت فى «**ريمز**» ، وفى نيته أن يورطهم فى مؤامرات حول عرش «**تيودور**» . حينما اكتشف «ويلسنجهام» أن الكاهن «**روبرت بارسونز**» المتآمر الجزويتى نجح فى إيجاد عملاء فى «كامبردج» ، قرر استخدام هذا الطريق لاختراق مخابرات الجزويت بعميل ذى وجهين ينضم إلى معهد الجزويت ، حتى يمكن معرفة تفاصيل المؤامرة التى تدبر هناك ، على أمل إنقاذ حياة «مارى» من حكم الإعدام الوشيك تنفيذه .

كريستوفر مارلو

اختار «كريستوفر مارلو» عميلاً مزدوجا لهذه المهمة ، وبارح «كامبردج» فجأة فى فبراير ١٥٨٧ . ولما عاد فى يوليو استدعته إدارة الجامعة واستجوبته لغيابه بدون إجازة ، ولالتحاقه بمعهد الجزويت فى «ريمز» ، حيث أعلن صراحة مقته للنظام البروتستانتى فى إنجلترا ، وعزمه على تنظيم حركة مقاومة كاثوليكية هناك . واستطاع «كريستوفر» معرفة أسماء المتآمرين الرئيسيين ، وعاد إلى إنجلترا وقدم المعلومات إلى «ويلسنجهام» . فأمر وزير الخارجية ورئيس جهاز الخدمة السرية بإسقاط كل التهم الموجهة إلى كريستوفر ، والسماح له باستئناف دراسته فى جامعة «كامبريدج» .

فقد «كريستوفر» التكريم والاعتبار تدريجيا لأسباب ما تزال مجهولة . وفى مايو ١٥٩٣م ألقى القبض عليه فى بيت «توماس ويلسنجهام» ابن عم وزير الخارجية . وأخلى سبيله بكفالة مالية ، بعد استجوابه حول اتهامات يمكن أن تؤدى به إلى السجن فى القلعة .

بعد عشرة أيام قيل إنه لقى مصرعه فى مشاجرة بحانة فى «**دبتفورد**» . وهناك

شائعات مؤداها أنه لم يمت مطلقاً ، وأن عملية اغتياله مجرد مسرحية لتمكينه من الهرب إلى أوروبا بهوية جديدة .

الأرجح أن «مارلو» كان ضحية تصفية بدنية ارتكبها «فريزر» بإيعاز من جهاز الخدمة السرية ، الذى أطلق سراحه بدون تفسير مقنع ، كما لم يعرف أحد سبب وجود «روبرت بولى» ـ جاسوس ويلسنجهام المعروف ـ فى حانة «ديبتفورد» . وقت ارتكاب الجريمة .

★ الأوبريتشنينا أول مخابرات روسية

كان جهاز «**الأوبريتشنينا**» أول مخابرات سياسية روسية . أسسها «**إيڤان الرهيب**» عام ١٥٦٥م حينما كان دوقا لموسكو ، قبيل تتويجه قيصرا . كان الجهاز مكونا من ٦٠٠٠ رجل ، يرتدون زياً أسود موحداً ، ويمتطون خيولا سوداء، سروجها مطرزة برسم كلب ومكنسة ، رمزا لاحتقار الخونة وتكريس كل الجهود لإزالتهم من الوجود .

كان للأوبريتشنينيين سلطة مطلقة وحصانة لانهائية ، جعلتهم يتصرفون كما لو كانوا وحوشاً ، فرائسهم أجيال من النبلاء ، وملاك الأراضى ، والطبقة الأرستقراطية ، الذين سجلهم إيڤان فى قوائم الخونة ، وأعدم بعضهم ، ونفى البعض الآخر إلى «**كازان**» مدى الحياة ، وصادر أملاكهم وأموالهم .

إيڤان الرابع أو الرهيب

نشر رجال «الأوبريتشنينا» الرعب فى كل المدن ، وذبحوا معظم سكان « **نوفجورود**» فى خمسة أسابيع ، مارسوا فيها أبشع طقوس القسوة عام ١٥٧٠م . أطلق «**إيڤان**» يد الأوبريتشنينا فى رقاب الناس سبع سنوات سميت بعهد الفزع ، ثم بدأ هو نفسه يخشى استفحال قوة جهازه السرى ، فحله ، وسرح رجاله كلهم عام ١٥٧٢ ، وجرد الأحياء منهم من ممتلكاتهم ، وتنفس المواطن الروسى الصعداء بعد سبع سنوات من حكم خانق رهيب .

محاكم التفتيش
والتجسس الاجتماعى

عندما احتدم الصراع بين المذهبين البروتستانتى والكاثوليكى فى أوروبا إبان القرنين : الخامس عشر والسادس عشر ، سادت جاسوسية محاكم التفتيش فى الدول الكاثوليكية ، وعلى رأسها أسبانيا . كانت هذه المحاكم تدار طبقا لتعاليم رهبان «**سان دومينيك**» . وهؤلاء استخدموا آلاف الأشخاص من خارج الكنيسة كجواسيس ومرشدين . وقد نصت إحدى نصائح محاكم التفتيش الواردة فى منشورها الرئيسى على الآتى :

«ليكن معلوماً للجاسوس أن من حقه التظاهر بالصداقة لاستخلاص اعتراف من متهم عن جريمته . وأن هذا قد يقتضى منه تصنع الانتماء لنفس الطائفة ، وهذا جائز بشرط عدم التفوه بذلك صراحة ، لأن ذلك ينطوى على إثم مهما يكن إثماً ثانوياً ، الأمر الذى يجب تجنب ارتكابه تحت أى ظرف» .

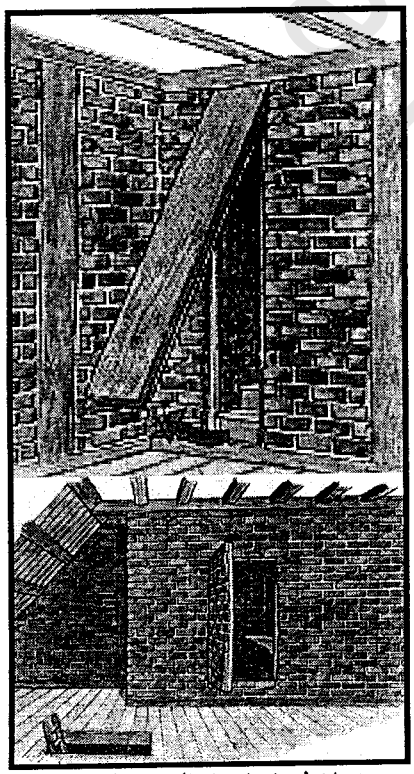

نموذجان لغرف إخفاء الرهبان فى الجدران والأرضيات

اشتهرت محاكم التفتيش بزنازين السجن الانفرادية ، وغرف التعذيب ، لكن لم يثبت أنها أولى النظم التى فرضت «**التجسس الاجتماعى**» على نطاق واسع بين كافة طوائف الشعب . و«التجسس الاجتماعى» هو التجسس على المواطنين العاديين أيا كانوا ، يوما بعد يوم ، بأسلوب بوليسى عام ، على غرار ما تفعله النظم الدكتاتورية الفاشية الطاغية . وهى طريقة تهدف إلى التأكد من أن كل مواطن يرضخ لسلطة حكام البلد ، وبالتالى فإن من يرى رأياً مخالفاً ، لابد من الإبلاغ عنه لينال عقابه ، أو يعزل عن المجتمع حتى يثوب إلى رشده ، أو يصفى جسديا حتى لا يصيب الرأى العام بعدوى أفكاره المضادة للسلطة . وقد استخدم هذا الأسلوب فى العصر

الحديث للاستئثار بالسلطة ، كل من : هتلر ، وموسولينى ، وستالين ، وعبدالكريم قاسم ، وطغاة آخرون .

التجسس الاجتماعى إذن جزء لا يتجزأ من محاكم التفتيش . وقد ظهرت محاكم التفتيش لأول مرة فى العصور الوسطى ، ونشطت فى أسبانيا عام ١٤٧٨ للقضاء على الهرطقة ، وسرعان ما أصبح كل شعب أسبانيا تحت ميكروسكوب محاكم التفتيش ، التى كانت تتكون جماعات صغيرة من موظفى الكنيسة ، الذين يستخدمون عدداً ضخماً من الجواسيس والمرشدين ، يساعدونهم فى عملهم، مقابل منحهم مميزات خاصة كالإعفاء من دفع الضرائب ، وعدم المثول كمتهمين أمام المحاكم العادية . وأدى ذلك إلى نمو عددهم بسرعة . وكانوا يتصيدون للناس أتفه الهفوات .

غرفة تعذيب ، فيها التنكيل بالمحرقة ، والتعليق ، والكى ، ونزع الأظافر ، وصب الماء الساخن فى الجوف ، بينما الكهنة يسجلون الاعترافات

بالإضافة إلى جيش الجواسيس الرسميين ، جعلت محاكم التفتيش كل مواطن جاسوسا غير رسمى ، وصارت تعاقب كل من يتوانى فى التبليغ عن بدعة أو هفوة بنفس عقاب مرتكبها ، فبدأ الناس يبلغون عن جيرانهم لأتفه الأسباب ، واستطالت

قوائم الجرائم المبلغ عنها ـ من ذلك ـ مثلا ـ أن رجلا فى سن الثمانين ، اتهمه صديق قديم ، بأكل البصل ولحم الخنزير فى يوم عيد . واتهمت امرأة جارتها بأنها ابتسمت حينما سمعت شخصاً يتحدث عن العذراء مريم .

وجه البعض اتهامات لجيرانهم لمجرد تصفية حساب عدائى بينهم . وبلغ الذعر ببعضهم حد الاعتراف أثناء الاستجواب بآثام لم يرتكبوها . وكانت الملاغات تقدم سراً ، والتعذيب يشتد لاستخلاص الاعترافات ، والأحكام تعدل على المتهمين فى احتفال وحشى كالح ، وفى نهاية حفل الموت يساق المحكوم عليهم إلى المحرقة ، وإذا اعترفوا فى اللحظة الأخيرة ، يشنقون عادة قبل إشعال النار .

فى أسبانيا الكاثوليكية ، كان البروتستانت يسامون سوء العذاب . وكان الكاثوليك فى البلاد البروتستانتية يعاملون بنفس الوحشية . ولجأت العائلات الكاثوليكية أحيانا إلى بناء غرف سرية فى بيوتهم ، لإخفاء رهبانهم حينما يتهددهم الخطر .

★ كاردينال ريتشيليو والمجلس الأسود

ينتمى «**ريتشيليو**» إلى أسرة فرنسية نبيلة ، اسمه الأصلى «**أرماند دمى بليسيس**» . وهو منشئ أول جهاز جاسوسية منظم فى فرنسا . عين أسقفا عام ١٦٠٥ تحت رعاية الملكة الأم «**مارى دى ميدبسى**» . وبعد سبع سنوات عين وزيرا للخارجية ، لكنه سرعان ما أقيل بعد اغتيال «**كونسينى**» سكرتير الملك عام ١٦١٧ . وفى عام ١٦٢٢ عين كاردينالا ، ثم أعاده الملك لويس الثالث عشر إلى وزارة الخارجية ، وتقلد رئاسة الوزراء عام ١٦٢٤ . وأنعم عليه الملك بلقب «**دوق ريتشيليو**» عام ١٦٣١ وظل شاغلا لهذا المنصب حتى توفى عام ١٦٤٢ . وخلال هذه الفترة كان الحاكم الحقيقى لفرنسا ، المهيمن على جهاز مخابراتها ، ومؤسس «**المجلس الأسود**» ، الذى نظمه ليحدد قواعد التعامل والانسجام بين البلاط الفرنسى وطبقة النبلاء .

كاردينال ريتشيليو

تركزت سياسة ريتشيليو ـ كرجل دولة أولاً ، ورجل دين ثانياً ، ورئيس وزراء ثالثاً ـ فى إعلاء شأن فرنسا ، عن طريق تثبيت السلطة المطلقة للنظام الملكى ، بتقديم سياسة داخلية ثيولوجية ، وسحب سيطرة آل هابسبورج من السياسة الخارجية . ونجح فى إحباط طموح «جاستون أوف أورليانز» و «**دومى دى سنك مارس**» ، الطامعين فى عرش فرنسا .

استخدم «ريتشيليو» جهاز مخابرات مترامى الأطراف انتشر فى كل أنحاء فرنسا، حتى يضمن استمرار علمه بكل أفكار وأفعال النبلاء ورجال الكنيسة . وكان ساعده الأيمن فى ذلك كبير مستشاريه ، الراهب الكبوتشى «**جوزيف دى تريمبلى**» مدير خدمته السرية ، الذى كان يتميز بالمكر والدهاء مما أكسبه لقب «**الكاردينال الرمادى**» .

فى عنفوان قوته ، عقد «ريتشيليو» حلفا مع الزعيم السويدى البروتستانتى «**جوستاف أدلف**» . مما أضعف موقف أمراء ألمانيا ، ومكن فرنسا من التحكم فى الألزاس ، كما أنه أضعف نفوذ الأسبان بتشجيع الثورات فى البرتغال وكتالونيا ، وخطط لسقوط ولسينستاين .

كانت شبكة جاسوسية «ريتشيليو» فريدة من حيث أنها استمدت وجودها ومشروعيتها منه شخصياً . كان انتماؤها لشخصه أكثر مما كان للتاج . كان يدفع أجور عملائه من جيبه الخاص ، ثم يستعيض نفقاته من مال الدولة أكثر مما يدفع، على نقيض ما كان يحدث بين فرنسيس ويلسنجهام وملكة بريطانيا البخيلة .

أما المجلس الأسود الذى أنشأه «ريتشيليو» فقد حقق أهدافه من حيث إيجاد التوافق بين الملك والنبلاء . واستخدم «ريتشيليو» هذا الجهاز البوليسى السرى فى حماية عرش الملك لويس الثالث عشر أثناء حالات ضعفه ، وفى تحطيم قوى النبلاء ، كما استطاع كشف محاولات «جاستون أوف أورليانز» الأولى ، ومحاولات «دوق دى سنك مارس» الأخيرة فى الانقضاض على العرش . وامتد نشاط مخابرات «ريتشيليو» فى كل أنحاء فرنسا ، وفى كل دولة فيها مصالح لفرنسا . وتوفى الكاردينال عام ١٦٤٢ . بينما استمر نفوذ «المجلس الأسود» ١٥٠ سنة أخرى ، إلى أن ألغته الثورة الفرنسية .